وكان الواحد منا حين يؤوب يقف منتظرا على باب الحارة حتى يدخل رجل فيفرح ويدخل معه ، ويتحكك به ، حتى إذا بلغ باب بيته قطع الحديث فجأة ، ودفع الباب بكل قوته مخافة أن تتعقبه الحارة . ولم نكن أطفالا على الحقيقة ، ولكنى أسلفت أنها حارة قوية يتضاءل أمامها المرء حتى يعود جنينا . وكنا إذا أردنا الخروج نتنادى أولا من المشربيات ، ثم نوقد المصابيح ونخرج متماسكين ، والمصابيح ممدودة بها أذرعنا كالحراب نشق بها كبد الحارة . ولكن هيهات فما كانت أقل منا استعدادا للهجوم ، فكانت ترسل على مصابيحنا تيارا من الهواء البارد فتنطفىء ؟

وذات يوم خرجت مع الخارجين فى رمضان ثم تركتهم ، فلما عدت كان الليل قد تنصف ، ولمحت رجلا أو خفيرا مقبلا وفى يمناه النبوت فسألنى أنت مين ؟ فقلت أنا .

طيب روح ولا تبجاشى تتلكع فى السكك بالليل . وأدار وجهه عنى كأنما كان كل بغيتى أن يجود على بنصيحة .

عدت إلى الحارة وقرأت الفاتحة وآية الكرسى . وهممت بالعدو ، وإذا بى أصطدم بجسم لين . وإذا بذراعين بضتين تلتفان بى ، ورفعت عينى فأبصرت مثيل بريق الذهب . وكانت المرأة ضخمة ، وحاولت أن أدفعها وأنا أكاد أختنق . . وهى تتراجع خطوة خطوة ، ولاتطلق سراحى حتى بلغنا الباب فحلت وثاقى ، ووقفت أتنفس ، ونظرت إلى ناحيتها فلم أر شيئا ، ومددت ذراعى فى الهواء فلم تلمس كفى شيئا ، فتقدمت خطوات فلم أصطدم إلا بحائط . . ورحت أجس الأرض بقدمى حتى لمست حجرا فتناولته ، واتجهت إلى الباب ، ورفعت يدى وأهويت عليه ، وإذا بى أقع على وجهى . ذلك أن الباب كان مفتوحا ، فلم يكن هناك شىء يتلقى دقتى فذهبت فى الهواء وأنا وراءها .

ولا أطيل على القارىء ـ وما الحاجة الى الإطالة ـ أفقت بعد ما لاأدرى كم من الزمن ، ونهضت بأنف دام ، ووجه وارم ، وعظام مرضوضة ، ولم أصعد السلم كل ثلاث درجات معا بل درجة درجة ، ويدى على الحاجز ، وكفى الأخرى تتحسس وجهى ، وتمسح ماتجمد عليه من الدم .

فهى حارة لعينة كما ترى .